المحاضرة السابعة: الخلافة في عهد الأمين والمأمون:

أولا: خلافة الأمين:

1/ تعريفه: هو محمد الأمين بن هارون الرشيد، وأمه زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور، ولد بمدينة الرصافة في سنة 170هـ/ 786م، فهو أصغر من أخيه المأمون بسبعة أشهر.

بويع له بولاية العهد في سنة 175هـ/791م وهو ابن خمس سنين. بويع بالخلافة بعد وفاة والده الرشيد سنة 193هـ.

اشتهر بحسن الأدب وفصاحة اللسان كان عالما بالشعر، تأدب على يد الكسائي وقرأ عليه القرآن الكريم، لكن غلب عليه الهوى واللعب، اشتهر بحب أصحابه وعطفه عليهم، لكنه فشل كقائد وخليفة.

2/ النزاع بين الأخوين:

مر النزاع بين الأخوين بطورين، مرحلة دبلوماسية سلمية انتهت سنة 195هـ/811م، أعقبتها مرحلة عسكرية انتهت بمقتل الخليفة الأمين سنة 198هـ/813م.

وترجع أسبابه إلى ثلاثة عوامل رئيسية هي:

- مشكلة ولاية العهد.
- صراع الحزبين الفارسي والعربي.
- أطماع الحاشية.

* تبدأ بمرض الرشيد إذ جدد البيعة للمأمون وأعطاه كل ما بحوزته من جند ومال والسلاح.

ولما توفي الخليفة رجع الفضل بن الربيع بالعسكر وما فيه إلى الأمين في بغداد ولم يعرج على المأمون، فكانت أول مخالفة لوصية الخليفة الراحل.

فاستنكر المأمون ذلك وأراد اللحاق واسترجاع الجيش، لكنه عدل عن ذلك بعد نصيحة مربيه الفضل بن سهل.

سعى الفضل بن سهل إلى تثبيت مركز المأمون في خراسان وذلك باسترضاء أهلها، وفي نفس الوقت نصح المأمون بالتودد لأخيه الخليفة.

لم يتسرع الأمين في نزع أخويه من ولاية العهد وإعطائها لابنه، وبدأ أولا بعزل أخيه القاسم (المؤتمن) عن ولايته(الجزيرة) واستقدمه إلى بغداد في سنة 194هـ، وفي نفس السنة كتب إلى جميع العمال بالدعاء لابنه موسى بالإمرة بعد الدعاء له وللمأمون وللقاسم، ولما سمع المأمون بالأمر قطع البريد عن الخليفة وأسقط اسمه من الطرز.

حاول الخليفة استعمل الحيلة لتفريق المأمون عن مواليه الخراسانية، وطلب منه القدوم إلى بغداد لحاجته له، ولكن المأمون تفطن للحيلة واعتذر بلباقة.

لما يئس الخليفة من مجيء أخيه كتب يطلب منه التخلي له عن بعض كور خراسان المهمة ليوجه العمال باسمه، وذلك لإضعافه وجعله تابعا له، فاضطرب المأمون للأمر وأرسل جوابا للخليفة يذكره بالعهود، في نفس الوقت أقام الاحتياطات الأمنية على خراسان، فوضع ثقات حرسه على الطرقات وأمرهم بتفتيش كل الرسائل، وأوصاهم أن لا يمر رسول من العراق إلى خراسان إلا مع الثقات من الأمناء دون أن يعلم من أمر خراسان شيء، وأمرهم بالقبض على المشبوهين.

ثم تفاقم النزاع بين الأخوين وبعث الخليفة الأمين وفدا يضم شخصيات مرموقة إلى أخاه المأمون قصد إقناعه بتقديم ابنه موسى عليه في ولاية العهد.

لما فشل في الأمر خلعه عن ولاية العهد سنة 195هـ/811م أخذ البيعة لإبنه موسى ولقبه "الناطق بالحق".

وأحضر كتابي العهد من فناء الكعبة المشرفة وأحرقهما وهنا أصبح النزاع المسلح أمرا محتوما.

3/ النزاع المسلح بين الأخوين 195- 198م:

*أرسل الخليفة جيشا بقيادة علي بن عيسى بن ماهان والي خراسان الأسبق لقتال جيش أخيه، فتقدم إلى الري حيث كان يرابط جيش المأمون بقيادة طاهر بن الحسين، والتحم الجيشان في معركة كبيرة سنة 196هـ/812م.

*نتائج المعركة: انتصار جيش المأمون- مبايعة الخراسانيين للمأمون كخليفة- مقتل علي بن عيسى بن ماهان أثارت أنباء الهزيمة فزعا كبيرا في بغداد.

مما أدى بالخليفة إلى تجهيز جيش أخر بقيادة عبد الرحمن بن جبلة الأنباري وأرسله إلى خراسان للتصدي إلى زحف طاهر، ووقعت المعركة الثانية في همذان فكرر جيش المأمون بقيادة طاهر ابن الحسين انتصاره وسيطر على مدينة همذان.
ثم واصل زحفه باتجاه العاصمة بغداد برفقة القائد هرثمة بن أعين، وضربا عليها حصارا فدبت الفوضى داخلها، وتمكنت قوة خراسانية من دخول المدينة وأسروا الخليفة الأمين وأودعوه السجن بعد أن فر من حوله كل قواده.
ثم اقتحمت عليه طائفة من الخراسانية الزنزانة وقتلوه في 25 محرم سنة 198هـ/ أب 813م، وسيطر طاهر على مدينة السلام.
قال المأمون بعد مقتل أخيه:" أما أنه أول من يؤخذ بدمه(الأمين) يوم القيامة ثلاثة وهم: الفضل بن الربيع وبكير بن المعتمر والسند بن شاهك، هم والله ثار أخي وعندهم دمه".

ثانيا/ خلافة المأمون 198- 218هـ/ 813-833م

هو عبد الله المأمون بن الخليفة هارون الرشيد، وأمه أم ولد يقال لها مراجل الباذغيسية.ولد في سنة 170هـ/787م.
ولاه أبوه ولاية العهد في سنة 183هـ/ 799م وهو في سن الثالثة عشرة من عمره.
بويع بالخلافة في سنة 198هـ/813م وهو بالري وقدم بغداد في سنة 204هـ/819م.
اشتهر بميله إلى العفو وكراهية الانتقام، وكان كريما حاضر البديهة سريع الجواب.
الأوضاع الداخلية:
لم يكن المأمون مطمئنا لأهل بغداد أنصار أخيه والحزب العربي، فأثر البقاء في مدينة مرو يدير الخلافة منها، تحت تأثير بني سهل ذات الميولات الفارسية، فقد كانوا يفضلون أن تكون مرو مركز الخلافة العباسية.
وقد استجاب الخليفة إلى نصيحة وزيره الفضل بن سهل في عزل قائده الكبير طاهر بن الحسين عن العراق وعين مكانه أخاه الحسن بن سهل، وأبعد هرثمة بن أعين إلى خراسان.
ثم كافأ وزيره الفضل بن سهل بإطلاق عليه لقب جديد "ذو الرئاستين" أي رئاسة السيف والقلم، وفوض إليه إدارة البلاد، فكان يقال له "الوزير الأمير".

أدى هذا الأمر إلى إحداث مشاكل كبيرة للخليفة تمثلت في:
- سخط العناصر العربية على السياسة الفارسية الجديدة.
- نشوب اضطرابات في بغداد وبعض ولايات الخلافة.

فقد بايع سكان بغداد عم المأمون "المنصور بن المهدي" في بادئ الأمر ولكنه رفض بيعتهم.
وفي سنة 198هـ/814م، قام في شمال حلب زعيم عربي من بني عقيل اسمه "نصر بن شبث" محاولا الثأر لمقتل الخليفة الأمين لأنه يمثل الحزب العربي، وسيطر على سميساط وشايعه كثير من الناس، وقوى أمره هناك إلى أن تمكن منه عبد الله بن نصر في سنة 209هـ/824م.
انتهز الطالبيون حالة الفوضى وقاموا بحركات مناهضة في العراق والحجاز واليمن، لعل من أخطرها:
أ- حركة أبي السرايا: هو أبي السرايا السري بن منصور الشيباني، قام في سنة 199هـ/815م، بأمر من محمد بن إبراهيم بن إسماعيل المعروف بابن طباطبا في مدينة الكوفة، واتسع نفوذه وسيطر على البصرة والحجاز واليمن، وهزم الجيوش العباسية، ثم تخلص من ابن طباطبا بالسم وولى مكانه محمد بن محمد بن زيد العلوي، وأرسل بكسوة إلى الكعبة المشرفة، ولكن نجح القائد هرثمة بن أعين إخماد هذه الفتنة وقبض على أبي السرايا في جلاولاء، وأخذه إلى الحسن بن سهل بالنهراوان فقطع عنقه.
ب- حركة محمد بن جعفر الصادق: قامت ببلاد الحجاز في سنة 200هـ/816م وتزعمها محمد الديباج بن جعفر الصادق، حيث بويع له في مكة بإمرة المؤمنين، ولكن الخلافة قضت عليها بسهولة، واضطر محمد الديباج إلى خلع نفسه.
حركة بابك الخرمي:
هي من أخطر الحركات السياسية الدينية التي عرفتها الخلافة العباسية، *تميزت بسعة انتشارها وانتظام دعايتها وبراعة قيادتها واتصالها بالبيزنطيين*، فقد شكلت ذروة التأمر الفارسي ضد الخلافة.
اغتنم بابك الفرصة لإعلان حركته المعادية في سنة 201هـ/816م بالأقاليم الشمالية، فكانت جبال أذربيجان وأران مهد الحركة.

وأحرزت نجاح في منطقة الجبال وهمذان وأصفهان وماسبذان ومهرجان، ودخل في دعوته جماعة من أكراد الجبل وقسم من الديلم وانتشرت في طبرستان وجرجان وأرمينيا وخراسان وسائر أرض العجم، واستقطبت بعض الدهاقين وأمراء الفرس من أهل السواد، كما سعى بابك إلى استمالة الأرمن، وتعاون مع البيزنطيين.
استمر في إحراز النجاح بفعل انهماك الخلافة في إخماد الفتن الداخلية في العراق والشام والحجاز ومصر.
توفي الخليفة المأمون والحركة في أوج قوتها، وتصدى لها المعتصم بكل قوة.

عودة المأمون الى بغداد:

حدث أثناء إقامة المأمون في مرو أن تأثر بالشيعة ومال إلى الطالبيين، ولبس الأخضر وتخلي عن السواد، وصاهر علي بن موسى بن جعفر الصادق، الإمام الثامن من أئمة الشيعة الإمامية الإثني عشرية، وفي رمضان سنة 201هـ/ 817م أعطاه ولاية العهد، وسماه الرضا،وذلك لإرضاء مشاعر الفرس المتعاطفين مع أل علي بن أبي طالب ـ رض ـ.
أحدث هذا الأمر هزة عنيفة في البيت العباسي فبايع أهل بغداد إبراهيم بن المهدي، وأنكر والي البصرة العباسي إسماعيل بن جعفر بن سليمان ابن علي تصرف الخليفة، وأعلن خلع المأمون، في الحين بايع أهل مكة علي الرضا ولم يبدي أهل المدينة أي اعتراض.
وقد أخفى الوزير الفضل بن سهل عن الخليفة كل هذه التطورات.

أدرك المأمون بعد أن أطلعه علي الرضا على مجريات الأحداث من عدم جدوى البقاء في مرو، وضرورة العودة إلى العاصمة بغداد، وذلك أمام ازدياد خطورة الأوضاع في مصر والجزيرة.
وأدرك أن سياسة الفضل بن سهل سوف تؤدي إلى ضياع ملكه.

فقرر الاتجاه نحو العاصمة بغداد في 202هـ/817م.
ويبدو أنه اكتشف تأمر وزيره الفضل بن سهل واتضحت لديه جوانب سياسته الرامية إلى تمكين العنصر الفارسي في الحكم، فأضحى التخلص منه أمرا ضروريا

* فلم يكد المأمون يصل إلى مدينة سرخس حتى دبر مكيدة لقتل وزيره الفضل في شعبان 202هـ/818م واستأنف طريقه إلى بغداد.
ولما وصل إلى مدينة طوس توفي ولي العهد العلوي علي الرضا فجأة في سنة 203هـ/819م، فدفنه المأمون بجوار قبر والده الرشيد، واتهمته الشيعة بقتله بالسم.
ثم واصل الخليفة طريقه ولم يكد يقترب من بغداد حتى سارع الناس إلى خلع إبراهيم بن المهدي وبايعوه في 17 ذي الحجة 203هـ/ 819م، ودخلها يوم السبت 14 بقين من صفر 204هـ/819م. وبعد أسبوع لبس السواد.

الأوضاع العلمية في عهد المأمون:

كان عصر المأمون من أرقى العصور العلمية في الدولة العباسية، حيث وصلت الجهود الثقافية إلى ذروتها، وذلك لولوع المأمون بتحصيل العلوم والمعارف بمختلف جوانبها والعمل على نشرها بين أفراد الأمة الإسلامية.
وتجلى ذلك في إمداد "بيت الحكمة" الذي أسسه الرشيد بمختلف الكتب، جلبها من بلاد الهند والروم والفرس، حتى أصبح أشبه بجامعة كبيرة، تحوي دار للكتب يجتمع فيها العلماء للترجمة والتأليف والتدريس، وأماكن خاصة لنسخ الكتب، ومرصد فلكي، ويحوي طائفة من المعربين، ويشرف عليه موظف يتصف بسعة العقل والأمانة العلمية يدعى "صاحب بيت الحكمة".
وكان المأمون مثقفا ثقافة فارسية ويميل إلى حرية الفكر والبحث، مما دفعه إلى إقامة "مجالس المناظرة" حتى يتمكن عن طريقها من إزالة الخلاف بين العلماء والفرق المختلفة، وكان الخليفة يجلس بنفسه للمناظرة في كل يوم الثلاثاء، ويناظر أحسن مناظرة وأنصفها وأبعدها من مناظرة المتجبرين.
والواقع أنه قدر للمأمون أن يخدم الثقافة الإسلامية خلال حياته السياسية عن طريق اهتمامه الشخصي بجمع تراث الأمم السابقة، خاصة التراث اليوناني والفارسي والهندي، فأرسل بعثات علمية للتنقيب عن ذلك ونقله إلى بيت الحكمة.

وعكف المعربون على تعريب أمهات الكتب من اللغات السنسكريتية والفهلوية واليونانية والسريانية، وبرز منهم حنين بن إسحاق الذي عرب أثار جاليليوس وأرسطو وأفلاطون وأبقراط وبطليموس، فكافأه المأمون بإعطائه وزن ما ترجم ذهبا، وأتم ابنه إسحاق تعريب أعمال أرسطو وجميع أثار جاليليوس الفلسفية والطبية، واشترك مع عدد من العلماء في وضع موسوعة جغرافية للخليفة.

كما استخدم المأمون جماعة من الفلكيين لرصد الأجرام السماوية وتسجيل وتحقيق كشوفات بطليموس، دراسة كسوف الشمس، وهكذا شهد عصره نهضة علمية كبيرة.

وتأثر المأمون بآراء المعتزلة القائلة بأن القرآن الكريم مخلوق، أي أن كلام الله سبحانه وتعالى ليس قديم، فتبنى هذه البدعة وكتب كتابا في سنة 218هـ إلى نائبه على بغداد إسحاق بن إبراهيم، يتوعد فيه كل من يخالف القول بذلك من الموظفين وأمره بامتحان القضاة وإقالة كل من لا يقول بخلق القرآن من وظيفته، واتخذها مذهبا رسميا للدولة، وأمر بتقوية المعتزلة ومساندتهم في اضطهاد خصومهم.

وقد ذهب ضحية هذه الفتنة عدد كبير من الناس والعلماء ولم يصمد للحق إلا العالم الجليل أحمد بن حنبل الذي وقف في وجه الباطل وقال بأن القرآن كلام الله تعالي وتبعه في ذلك صاحبه عفان بن مسلم أبو عثمان، فتعرضا إلى نكبة عظيمة، واستمرت هذه القضية إلى عهد المعتصم والواثق.

ومما يجدر التنويه إليه أن المأمون ركز في مسألة خلق القرآن على امتحان القضاة والمحدثين وسائر العلماء دون العامة لأنهم لا نظر لهم ولا استدلال، أما العلماء فهم أرباب النظر، وقد أصبح هذا الامتحان الديني أداة سياسية في يد الخلافة العباسية، تستخدمه في جميع الولايات لاضطهاد من لا يدينون بالطاعة والولاء لها.

ج/ الأوضاع الخارجية:

شهدت الجبهة البيزنطية ركودا يكاد يكون تام لانشغال المأمون بحربه ضد أخيه وإخماد الاضطرابات الداخلية.

تجدد الصراع سنة 205هـ/830م حيث غزى الخليفة المأمون الصائفة بنفسه وفتح حصن قرة وحصن شمال صملة وأخضع سندس وحصن سنان وماجدة، ثم قفل راجعا إلى دمشق ومنها إلى مصر.

اغتنم البيزنطيون ذلك وأغاروا بقيادة تيوفيل بن ميخائيل على طرسوس والمصيصة، فرد الخليفة عليه بهجوم ثاني وضل الأمر كذلك.

وقد عقد المأمون اتفاق مع توماس الصقلبي قاد على إثره ثورة مسلحة ضد الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثاني، في المقابل تأمر بابك الخرمي ضد المسلمين حين عقد اتفاق مع الإمبراطور البيزنطي.

د/ ولاية العهد ووفاته:

خلع المأمون أخاه القاسم من ولاية العهد في سنة 198هـ/814م.

وفي مرضه الأخير تجاوز ابنه العباس.

وعهد لأخيه أبي إسحاق المعتصم، وأوصاه بوصية طويلة من بينها تعضيد القول بخلق القرآن الكريم، والاهتمام بشؤون الرعية، وبالثغور والعواصم، ومحاربة الخرمية، وأن لا يستوزر أحدا والرفق بالعلويين.

توفي في البندون وهو في طريقه لغزو بلاد الروم لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر رجب سنة 218هـ/ أب 833م، وحمل إلى طرسوس حيث دفن هناك.